فلسفة الخطأ

من الوجهة النفسية

« نقلا عن العلامة « هيو اليوت » : Hugh Elliot

— ١ —

يؤخذ كل من يقرأ تاريخ الفكر فى العصور القديمة ، بكثرة ما يعثر عليه خلال درسه من عناصر الخطأ المتغلغلة فى ثنيات الحقائق العامة . فاذا قرأنا التاريخ القديم مثلا ، وجدنا أن مقدار ما فيه من الخطأ قد يتجاوز مقدار ما فيه من الصواب . والراجح أن قدماء اليونان يمثلون أرقى مستوى للنبوغ والمواهب العقلية ، بلغ اليه شعب من الشعوب البشرية فوق هذه الارض على مدار العصور . وعلى الرغم من هذا نجد أن أساليبهم التفكيرية وفلسفتهم النظرية ، وكذلك مناهجهم العملية فى الحياة ، قد تردت جميعها فى حمأة الخطأ . فأنهم كانوا يعتقدون بسلسلة طويلة من الآلهة والآلهات ، لكل منهم سلطة خاصة فى حيز محدود . أما فكرتهم فى أصل الكون ، وقد بنيت على ما قال به فيلسوفهم « امبيذقليس » — Empedocles — إذ قضى بأنه يتكون من عناصر أربعة هى : التراب ، والهواء ، والنار ، والماء ، فكانت الخطأ كل الخطأ (١) . وكانوا يعتقدون بأن الشمس تدور من حول الارض ، وأن بلاد الاغريق هى مركز العالم الارضى ، وأن الارض مسطوحة مستوية . بينا نجد أن معتقداتهم فى حياة الحيوان وطبيعة الانسان ، عبارة عن نسيج يتعارض الخطأ فى خلال خيوطه الواهنة الضعيفة .

أما فى الحياة العملية ، فالخطأ ملء أساليبهم . وكذلك مبادئهم الادبية ، اذا قيست بالتصورات الحديثة فى شريعة الآداب العامة ، ظهرت كأنها قد قامت على أساس من الخطأ والفساد . وكذلك أساليبهم فى الحكم والنظام الحكومى ، ولو أن قياس

---

(١) أول من قال بأن أصل العناصر كلها الماء الفيلسوف طاليس Thales أول فلاسفة اليونان . وهى فكرة أخذها عن المصريين . أما هذا التكوين « الرباعى » الذى قال به امبيذقليس فعبارة عن مجموع مذاهب فى أصل العناصر قال بها فلاسفة من قبله « العصور »

حكوماتهم بحكوماتنا ، يظهرنا على أنهم كانوا من هذه الناحية أقل خطأ من غيرهم من الأمم والشعوب .

وما يصدق على التاريخ القديم ، يصدق على تاريخ القرون الوسطى . فانها أزمان سادت فيها تصورات خاطئة فى الحياة والكون ، حتى لقد امتدت فيها أصول الخطأ فى بعض الأحيان إلى أغوار لم تبلغها فى العصور القديمة . ذلك لأن الناس فى القرون الوسطى قد جعلوا لمعتقداتهم وتقاليدهم الخطر الاول والمنزلة العليا ، فكانوا أقل تسامحاً فى الرأى ، وعلى الأخص عند الاختلاف فيه ، مما كان أهل المدنيات القديمة . فان الكنيسة الكاثوليكية فى القرون الوسطى قد استمسكت بأخطاء أجبرت الناس على أن يمضوا بها قانعين ، واضطرتهم اليها مستعينة عليهم بالمخلعة والسندان (١) وكذلك العلم والفلسفة خلال تلك القرون ، كان الخطأ طابعها . وأما الآداب ، فكانت عبارة عن مجموع ما ندعوه اليوم استبداداً ووحشية . وعلى الجملة نرى أن الخطأ الذى ساد أرامهم وأعمالهم ، يكاد يربو على الصواب .

فاذا عدنا فى التاريخ القديم إلى النظر فى حالات المتوحشين فى العصر الحاضر فاننا نعود إلى مواجهة الخطأ سائدا أينما وليا وجهنا وحيثما كنا . فالمتوحشون لهم من صور الميثولوجيا — الخرافات المقدسة — مايكافىء توحشهم وهمجيتهم . وكذلك آراؤهم فى الانسان وفى الروح الانسانية . فان أساسها خطأ لايستحق اليوم إلا احتقارك واشفاقك . ثم تصورهم لطبيعة السبب والمسبب أو العلة والمعلول ، ليس فيها إلا الخطأ والبعد عن الصواب . ثم حكوماتهم . فانها حكومات ليس فيها إلا الاستبداد والقوة الغاشمة . وحياتهم البومية والعائلية ، فانها بعيدة عن أن تكون مجلبة السعادة . وعلى الجملة نرى أن الهمج عبيد معتقداتهم وأوهامهم . ذلك لأن الخطأ لا الصواب ، هو الذى يحتكم فى المبادىء الأولية التى تقوم عليها حياتهم .

ولن نشعر مطلقاً بأن الخطأ قد خضع لضرب ما من ضروب الصواب والحق ، وأن السفه قد استقوى عليه الرشاد بصورة ما من الصور ، إلا إذا تدبرنا حالات عصرنا الذى نعيش فيه ، والقواعد التى تقوم عليها مدنيتنا . بل تتعدى هذا الحد فنقدر أنفسنا بما لا نقدر به أية أمة أخرى ، ونعتقد بأننا أخص الأمم استمساكا بحرية الفكر وأشدهن حرصاً على تطبيق الطريقة العقلية ، وأننا أقدرهن على تنظيم حياتنا

---

(١) من آلات العذاب فى القرون الوسطى « المصور »

جرياً على أسمى المبادىء المنطقية ، وأننا قد زودنا بقوة تجرى بنا فى أقوم طرق الحياة . وقد نختلف بعض الاحيان تلقاء بعض مانؤدى اليه الابحاث العلمية من النتائج ، ولكننا مع اختلافنا هذا ، لايمر على خاطرنا ريب فى أن علومنا الحديثة تحتوى على مجموعة كبيرة من الحقائق ، تخلصت تماماً من آثار الخطأ والفساد (١) وكذلك نحن إزاء المسائل الدينية ، فاننا لانتفق عليها اتفاقاً تاماً . ولكننا مهما اختلفت نظراتنا الفردية فى الدين ، فانا نعتقد بأن مبادئنا الدينية مبادىء صحيحة قويمة ، وأننا نستطيع من طريقها أن نعثر على الحق . كذلك ليست الخلافات التى تقع بيننا الا ظاهراً من التناقض لاتبلغ حقيقته إلى الحد الذى تتخيله . فاللا أدريون والدينيون من أهل العصور الحديثة يتفقون على أشياء عامة أكثر مما يتفقون لا أدرى العصور الوسطى ، أو أهل الدين فيها . وما يصدق من هذا القياس على أهل العصور الوسطى ، يصدق على أهل العصور القديمة . فرجل من رجال الكنيسة فى هذا العصر قد ينقلب بسهولة الى لاأدرى صميم ، كما يتفق أن يصبح أحد اللا أدريين من أخص رجال الكنيسة . فان تقلبات كبيرة كهذه أصبحت من الحوادث العادية التى لاتستحق اهتمام الناس ولاتثير دهشتهم . غير أننا مع هذا لن نرجع إلى تلك الصورة الميثولوجية التى توعز لنا بربوبية « ابولون » أو « زيوس » (٢) وكذلك لن نرجع إلى أسلوب عقلى يزين لنا ان ندافع عن نظام التفتيش الذى جرى عليه أهل القرون الوسطى . وعلى الجملة ، نرى أن الخطأ الذى تغلغل فى معتقدات أهل الازمان الاولى ونظاماتهم وحالات حياتهم ، قد ازاحه عن أفقنا أسلوب المعرفة الحديث والبحث العلمى على قواعده الجديدة .

وكذلك الحال اذا انتقلنا إلى اشياء أخرى . فانا نجد اننا لسنا إزاءها باسعد حظ منا بازاء الاولى فى الوقوع على الحق . فان قانون الآداب مثلا ، لم يناقش حتى الآن مناقشة جدية . فانا نقتصر على امتهان الاشخاص الذين لايراعون ذلك القانون ونحتقرهم ، ولكن المبادىء الأساسية من هذا القانون لم تناقش ولم تنتقد . ولقد يقوم بين آونة وأخرى مصلح من المصلحين يدعو الى تغيير بعض المبادىء من شريعة الآداب . غير اننا نلاحظ دائماً أن مادعى إلى تغييره من هذه الشريعة حتى الآن كان تافهاً . كما كان غير ماس الا بالظاهر دون الجوهر . ومع هذا فان المصلحين الذين هم من هذا الطراز يعتبرون عادة من رجال الثورة والانقلاب . وربما تناولهم البعض بنقود يحاولون

---

(١) انا حتى نطاق المرنة اقصر الخلاف على الكليات ، وانا اتسع نطاقها تناول التفاصيل وأدق الاوضاع « العصور »

(٢) من آلهة الاغريق القدماء

من ناحيتها أن يسفهوهم تسفيها قائما على المقارنة بين ما يدعون اليه وبين مبادىء تستمد من مخلفات فلاسفة اليونان من الاخلاقيين . كما أن القائمين على نظام الكنيسة قد يثورون ضدهم مستمدين من مبادىء الكنيسة فى القرون الوسطى مستنداً يعززون به ثورتهم ويؤيدون به موقف العداء إزامهم .

وفضلا عن ذلك فانك تجد ان نظامنا الحكومى نظام يظهر لأول وهلة كأنه قائم على مبادىء أدنى إلى العدل ، من كل نظام حكومى سبقه خلال الازمان السابقة . فمبدأ التمثيل النيابى قد بعد عن أن يكون موضع خلف أو جدل ، بل أصبح قاعدة معترفاً بها . وكذلك ثبتت أصول الديمقراطية بيننا ، فتحررنا ، كما نعتقد جميعاً ، من الأخطاء والشرور التى كانت تختفى دائماً وراء الحكومات الفردية الاستبدادية وحكومات الأقليات . هذا هو تصورنا الاكثرية على الرغم من أن هنالك أقلية تتصور ضد هذا . وهذه طبيعة العقل الانسانى . فان الاتفاق الشامل على أى شىء من الاشياء التى يمكن أن يبدعها العقل الانسانى ، امر لم يحدث مطلقا خلال التاريخ المعروف . والظاهر أنه لن يحدث فيما بعد . فلكل عصر من العصور افراده الذين ينحرفون عن إجماع الاكثرية . وله مفكروه الذين يتخذون وجهة مخالفة لوجهة النظر التى تنتحلها الاغلبية . فلدينا فى هذا العصر فئة من الافراد الذين يعتقدون أن الشمس تدور من حول الارض ، كما كان فى عصر اليونان فئة انحرفت عن رأى الاغلبية فاعتقدوا أن الأرض هى التى تدور من حول الشمس غير أن أمثال هؤلاء لايقام لهم وزن من حيث التأثير فى عصورهم . فاننا كاحدى سلالات النوع البشرى إنما نؤمن بالديمقراطية ، إيماننا بالنظام الشمسى وبنشوء الانواع . وعلى القاعدة ذاتها نعتقد فى بضعة مبادىء دينية وعلمية وأدبية . وكذلك نؤمن بأننا على وجه العموم قد حصلنا على وجهات من النظر قويمة فى الحياة وفى الكون . وأن تأملاتنا الفلسفية ونظاماتنا الاجتماعية غير متغلغلة فى ثنايا أخطاء جوهرية ، كما كانت التأملات الفلسفية والنظامات الاجتماعية بين غيرنا من الاقوام الذين عاشوا فى العصور الأولى أو بين السلالات البشرية التى تعيش الآن خارج نطاق الحضارة الحديثة . وهكذا الحال فى نظام حياتنا اليومية . فان آمالنا ورغباتنا والاغراض التى نعتقد أننا من أجلها نعيش ، تظهر لنا كأنها قائمة على قواعد وأسس أقرب إلى حقائق الحياة ومعانيها الثابتة . ثم مطامعنا ومراميناً وجهودنا ، ليست مقودة ، كما كانت فى الماضى ، بمنازع خاطئة مسفة . فانها على الجملة تمثل وجهة من النظر فى الحياة ، تظهر لنا أنها صحيحة غير فاسدة ولامضللة . (١) للبحث بقية ، تظهر تباعا .

---

(١) بدأنا بنشر هذا التمهيد لتابع القارئ فى لب الموضوع . وسنعمل جهدنا لكى نقف بكل قسم منه عند نهاية فكرة معينة فى سلسلة البحث .